الصحافة الصفراء

اطلعنا على مقالة بديعة للكاتبة البليغة اليصابات بنكس في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية موضوعها الصحافة الصفراء في اميركا وكنا ونحن نطالعها يتنازعنا عاملان الرغبة في تعريبها ونشرها ليتفكّه القراء بمطالعتها كما تفكهنا نحن ويستفيدوا من الاطلاع على شؤون الناس واساليبهم الغريبة في الكسب . والخوف من ان يتعلّم ارباب الصحافة عندنا او المتطفلون على موائدها تلك الاساليب الشاذة فيزيدوا صحافتنا ضعفاً على آلة . فاخترنا التوسّط بين الطرفين وهو ان نلخص المقالة تلخيصاً ونحذف منها ما لا فائدة من نشره عندنا . قالت الكاتبة ما ملخصه

تطلق " الصحافة الصفراء " على بعض الصحف الاميركية الكثيرة المال الواسعة الانتشار التي لها الشأن الاعلى في مصالح الاميركيين. واصل هذه التسمية ان صحيفة " نيويورك وورلد " اخذت منذ مدة تنشر كل احد قصة وهمية عن شخص وهمي تسميها " بالجدي الاصفر " وتنشر معها صور الاشخاص الذين يرد ذكرهم فيها ولكنها تصورهم صوراً هزلية قبيحة جداً بافواه كاشرة درداء وآذان طويلة كآذان الحمير وتلبسهم قمصاً صفراء كالاطفال. فاقبل الناس على قراءة تلك الاعداد اياً اقبال وكانت توزّع مدى الاسبوع كله في طول البلاد وعرضها. وزاد انتشار صحيفة " الورلد " سببها زيادة عظيمة. واتفق ان شابّاً من اغنياء كليفورنيا وهو ابن المستر هرست المنقّب بتلك الفضة اشترى صحيفة " نيويورك جورنال " وعزم ان يناظر بها صحيفة " الورلد " وكانت الورلد اوسع الصحف كلها انتشاراً فكان اول امر فعله والقناطير المقنطرة من المال في يديه انه بعث الى المحررين والمصورين في صحيفة " الورلد " واغراهم بالاجور الكبيرة حتى يتركوها ويساعدوه في تحرير صحيفته وتصويرها ودفع الى كل منهم ضعفي اجرته او ثلاثة اضعافها او اربعة اضعافها او خمسة اضعافها وفيهم المصور الذي كان يصور الجدي الاصفر فصارت صورته تظهر في الجرنال بدل ظهورها في " الورلد " . وكان الكاتب الشهير تشارلس دانا محرراً لصحيفة الشمس وكان يكره الصحف التي تعتمد على اثارة الخواطر بالاخبار المهيجة كصحيفتي الورلد والجرنال فكتب عن انتقال " الجدي الاصفر " من صحيفة الورلد الى صحيفة الجرنال ولقبهما " بالصحف الصفراء " وسمى الكتابة فيهما " بالصحافة الصفراء " فأُطلق عليها هذا الاسم من ذلك الحين

وعدد الصحف الصفراء في الولايات المتحدة الآن نحو خمس عشرة او عشرين صحيفة وكلها

صحف غنية اي ان اصحابها من اهل الثروة الواسعة الذين ينفقون الاموال الطائلة على ترويج صحفهم وزيادة انتشارها. ولانتشارها الوسيع صارت الاخبار تروى عنها وتعزى اليها في البلاد الانكليزية كأنها محل ثقة الامة الاميركية

ولا شبهة في ان الصحافة الصفراء صارت قوّة عظيمة ولدى اصحابها التناطير المقنطرة من الذهب الوضاح ينفقونها كيف شاؤوا. وهم يزعمون ان صحفهم للعامة لا للخاصة يدافعون بها عن حقوق العامة المهضومة ويقاومون مطامع ارباب الجاه والثروة فترفع الاذلاّء وتحطّ الاعزّاء وتنصف الضعيف من خصمه القوي. وظلوا على هذا الزعم وحذه الدعوى الى ان نُسفت سفينة المين الحربية في مرفإ كوبا على ما هو معلوم فلم يعودوا يعتنون بامر المستضعفين والمظلومين من الصنّاع والعمّال ولا باكتشاف القتلة واللصوص بل صار همهم كلهُ الثاء التنفير في الامة الاميركية ودعوتها الى القتال لترفع العار عنها وتمحو الشنار. ولعبوا بالحرب لعب الطفل بالدمية لانهم لم يروا حرباً منذ نشأت صحفهم. وكان عقلاء الامة يترقبون مجرى الحوادث واصحاب الصحف الصفراء يكثرون من خزن الورق لعلمهم ان الحرب على الابواب وانهـا لا بدّ من ان تزيد ما ينشر من صحفهم زيادة بالغة فوسعوا مخازن الورق وصنعوا حروفاً كبيرة لم يطبع مثلها في صحيفة من قبل وجعلوا بها جملاً قالوا لا بدّ من نشرها قريباً مثل قولهم "واقعة محربة عظيمة" او "اطلاق المدافع على هاتنا". وطول الحرف منها اكثر من قدم لكي يرى عن بعد ثم طبعوها في صحفهم قبل المناداة بالحرب فاقبل الناس على ابتياعها كبارٌ وصغارٌ رجالاً ونساء فوجدوا ان اصحابها طبعوا قبل الجملة الاولى كلمة "ستحدث" بحروف صغيرة جدًّا لا ترى الاّ بامعان النظر فصارت الجملة "ستحدث واقعة محربة عظيمة". وطبعوا قبل الثانية كلمة اخرى مثل قولهم "لا بدّ من" فصارت الجملة "لا بد من اطلاق المدافع على هاتنا". واقنعوا القراء انهم مهتمون بشؤون الحرب اهتماماً لا مثيل له فصاروا يصدرون الملحقات لصحفهم الواحد بعد الآخر حتى لقد يصدر ثلاثون ملحقاً للصحيفة الواحدة سيف اليوم الواحد واذا حان وقت صدور الملحق ولم ترد عليهم اخبار جديدة اتقوا له اخباراً من عندهم

وتعادت تلك الصحف في عيبها وأكاذيبها حتى لما حدثت واقعة مثلا فعلاً ودمّر الاسطول الاسباني لم تجد طريقة تنشر بها الخبر ويصدقها الناس لكثرة ما سمعوهُ من كذبهـا فاضطرت واحدة منها ان تصنع حروفاً جديدة من القدد وتكوا كب على شكل العلم الاميركي وتنشر الخبر به

وكان عقلاء الامة الاميركية لا يحسبون حساباً لهذه الصحف لعلمهم انها مكتوبة للعامة لا للخاصة اما الآن وقد شاهدوا ما لها من السلطة على جمهور الامة فتغير رأيهم فيها حتى قيل

ها هي التي اجبرت الرئيس مكنلي على الحرب وانها هي تجبره على الصلح ولذلك تراهم يفكرون في اسلوب يستأنفون صلوتها به. وعندي انهُ لا يمكن مقاومتها الاَّ بالمال اي بان ينفق بعض الاغنياء على انشاء صحف كبيرة رخيصة اصلح منها من كل وجه فتتغلب عليها. ولا يفلُّ الحديد الاَّ الحديد واذا تبارى الخير والشر فالغلبة للخير اخيرًا

وأكتب كتَّاب اميركا الآن سبع في خدمة الصحف الصفراء ومنهم محررون شيوخ قضوا العمر في تحرير اشهر الصحف ذات الشأن العظيم التي تعدُّ في اميركا بمقام التيمس في انكلترا لكن اصحاب الصحف الصفراء اغروهم بالاموال الطائلة فتركوا مناصبهم وانتظموا في سلك محرريها وقد يكون حزبها ضد حزبهم وغرضها ضد غرضهم ولكن الذهب غرَّار وقلَّ من لا يتعبد لهُ

وللمرأة شأن كبير في الصحافة الصفراء في اميركا ولهنَّ اجور طائلة قد تزيد على اجور الرجال واصحابها لا يفرقون بين الرجل والمرأة الاَّ من حيث المقدرة والكفاءة فيدفعون الراتب الكبير لمن يستحقهُ عملهُ رجلاً كان او امرأة. بل ان النساء اصلح لاغراضهم من الرجال في كثير من الاحوال لانهن يدخلن مداخل لا يدخلها الرجل. وانا نفسي انتظمت في خدمة صحيفة من هذه الصحف في العام الماضي واول امر طُلب مني ان امشي ليلاً في شارع من اشهر شوارع نيويورك كأني من المومسات حتى يقبض عليَّ الشرطة ويودعوني السجن فابيت مع المومسات واعود في الصباح واكتب عما حدث لان الحكومة سنَّت حينئذٍ قانونًا يقضي بالقبض على كل مومسة تمر في ذلك الشارع بعد ساعة معينة من الليل فاراد صاحب الصحيفة التي كنت في خدمتها ان يثبت للحكومة خطأها في سن هذا القانون بقولهِ ان سيدةً من المخبرات في صحيفتهِ قُبض عليها وهي سائرة في ذلك الشارع لان رجال الشرطة لا يمكنهم ان يميزوا بين المحصنة والمومسة. وغنيٌّ عن البيان اني رفضت ما عُرض عليَّ. وهذا يسمونهُ بالكشف الادبي اي كشف خطاء او ضلال لغاية ادبية فاضلة فيعرَّض صاحب الصحيفة فتأةً للعار والشنار وهو يزعم انهُ يقصد بذلك اصلاح البلاد وازالة المفاسد منها (١)

ولو ذهبت الى ذلك الشارع ومررت فيهِ ذهابًا وايابًا ولم يتعرَّض لي احد ورجعت وقصصتُ قصتي على صاحب الصحيفة لصرفني قائلاً اني ارسلتك لكي يُقبَض عليك وتكتبي لي عما رأيتهِ في السجن لا لكي ترجعي بخفَّي حنين

(١) (المقتطف) يظهر لنا ان صاحب تلك الصحيفة وجد ضالَّته اخيرًا فاجابهُ الى ذلك فقبض عليها واودعت السجن مع المومسات لانها رأيتا في صحيفة اميركية من الصحف الصفراء صورة سجن ادارة البوليس والنساء يسقن الى سوق الاغنام في بلدة نيلاء ويبعنَّ مكاتبات الجرائد

وحدث منذ مدة وجيزة ان فتاة جميلة المنظر رُهنت املاك ابيها لدين عليه فخطر لها ان تستخدم في احدى هذه الصحف لتربح ما توفي به الرهن فقال لها مدير الصحيفة بلغتي ان البنات الآتيات الى نيويورك اذا كنّ وحدهنّ يلاقيهنّ الناس يدّعون انهم يساعدونهنّ لوجه الله تعالى فياخذونهنّ ويوردونهنّ موارد الشر فاطلب منك ان تسافري الى انكلترا وتقيمي هناك اسبوعين ثم ترجعي الى نيويورك وتظاهريني بانك غريبة شريدة لا صديق لك واذا سُئلتِ عن مقدار ما معكِ من النقود لان كل مهاجر ومهاجرة يجب ان يكون معهُ او معها مبلغ معين من النقود لكي يسمح لهُ بالنزول في اميركا فابكي وتظاهري بان ليس معكِ شيء وانظري ماذا يعرض عليكِ اولئك الناس الذين يتظاهرون بالشفقة عليكِ وجاريهم على مرامهم واذهبي معهم الى حيث يشاؤون لكي تكتشفي دخيلة امرهم وتكتبي ذلك في مقالة مسهبة تنشرها في صحيفتنا خدمة للمهاجرات وكشفاً لاسرار اولئك الخبثاء

ففكرت الابنة قليلاً وهي تقول في نفسها هذا هو السبيل الوحيد لفك الرهن ثم قالت لمدير الجريدة أليس هناك خطر حقيقي عليّ. فقال كلاّ لاننا نرسل واحداً من رجالنا الى المرفق لتعريفه وهو يعرفكِ فيقتفي خطواتكِ ولا يدع احداً يلحق بكِ اقل ضرر. فقولي انهُ لا خطر عليكِ على الاطلاق

ودفع لها كل ما طلبتهُ نفقات سفرها في الدرجة الاولى ذهاباً والثانية اياباً ونفقات اقامتها في لندن ولما استوفت كل ما طلبتهُ منهُ اعطاها مئتي ريال اخرى قائلاً لعلاكِ تحتاجين اليها. فمضت الى لندن واقامت اسبوعين ثم عادت الى اميركا ونزلت الى البر وجعلت تفتش عن الرجل المرسل لملاقاتها من ادارة الصحيفة فلم تجد احداً في انتظارها لان المدير نسيَ ما وعدها بهِ فاسقط في يدها حقيقة وبدت عليها الحيرة والدهشة ولكن لم يلتفت اليها احد فسارت في طريقها الى المنزل الذي كانت فيهِ قبلاً وهي لا تصدق بالنجاة. ولما استراحت قليلاً من وعثاء السفر كتبت قصتها كما هي ومضت بها الى مدير الجريدة فاعطاها مبلغاً من المال لاجل ما تكبدتهُ من المشاق وصرفها وطرح القصة في سلة الاوراق المهملة لانها لم تأتِ على حسب غرضهِ ولم يكشف بها ما اراد كشفهُ ولو كان وهمياً. اما هي فانعبها السفر في الرجوع الى الولايات المتحدة والخوف مما كانت تتوقعهُ وزاد خوفها لما لم ترَ احداً في انتظارها ولم تمضِ عليها ايام حتى مرضت مرضاً عصبياً شديداً من جراء ذلك

هذا واعود الى قصتي فاقول انني لما رفضت ما عُرض عليّ اولاً عرض عليّ المدير امراً آخر قائلاً "ان في قفار ولاية فرجينيا بعيداً من مساكن الناس قوماً يستقطرون الاشربة الروحية

رغماً عن اوامر الحكومة المانعة ذلك وقد حاول بعض رجال الشرطة اكتشاف امرهم فرموهم بالرصاص وقتلوهم وحاول كتبة الجرائد الوصول اليهم فعادوا بالفشل والاذى ولكن لم تحاول امرأة حتى الآن الوصول اليهم واكتشاف سرهم . وانا اطلب منك ان تذهبي الى فرجينيا وتقضي في سكة الحديد الى آخر ما تصل ثم تستأجري بغلاً وتسيري عليه وحدك في هذه الجهة (وراني الجهة على الخريطة) حتى تصلي الى مكان هؤلاء الناس فادّعي انك ضللت الطريق واتيحي معهم الى ان تعرفي دخيلة امرهم والقطار يقوم من هنا الى فرجينيا بعد نصف ساعة فكوني على اهبة السفر " وقد عنّت من اول ما شرع في الكلام انهُ لا يمكنني ان اجيبهُ الى طلبه ولكني اردت ان ازيد استقصاء لازيد استغرابًا فقلت لهُ "من من رجالك ترسلهُ معي لحمايتي . فقال كيف يمكنني ان ارسل معك رجلاً وهم اذا رأوهُ معك قتلوهُ وقتلوكِ اما اذا ذهبتِ وحدكِ فلا جناح عليك لان الشهامة الاميركية لا تتعارفهم ولو كانوا لصوصاً فلا يسيئون الى امرأة تستجير بهم

فانفضت رأسي وقلت لهُ ان ذلك مما لا استطيعهُ فقال اذًا اذهبي الى المحل الفلاني الذي يعمل فيه البنات لكشف ظلامتهن وبيّني الاسباب التي تدعو الى اعتصابهن" . فقلتُ وهب انني لم اجد اسباباً تسوغ لهن الاعتصاب نعم انني اذا وجدت اسباباً للاعتصاب ذكرتها والاَّ فلا . فقال هذا لا يصلح لانهُ لا بدَّ لجريدتنا من نصرة العمّال

وبعد مدة بلغني ان بعض اصحاب المعامل اساؤوا الى العاملات عندهم فاستقصيت الخبر وكتبتهُ واتيت بهِ الى مدير الجريدة فنظر اليهِ من شق عينهِ وقال ان اصحاب هذا المعمل ينشرون اعلانات كثيرة في جريدتنا فلا يمكننا ان نغيظهم

ومنذ بضعة اشهر أُرسلت امرأة الى مدينة نيويورك لتبحث عن اعتصاب العمّال في معامل القطن وتذاكر محافظ المدينة في شانهم وتكتب ما تسمعهُ منهُ عنهم فوجدت المحافظ غائبًا عن المدينة وبعثت تلغرافًا الى الجريدة تقول ان المحافظ غائب اليوم عن المدينة فجاءها الجواب "يجب ان تذاكريهُ في موضوع العمال سواء كان حاضرًا او غائبًا وترسلي صورة المذاكرة في ساعتين من الزمان" . وظهرت الجريدة ذلك اليوم وفيها مذاكرة مع محافظ مدينة نيويورك والكاتبة لم تَرَهُ وهو لم يقل كلمة مما ردتهُ عن لسانهِ . والقانون الاميركي لا يعاقب اصحاب الجرائد على مثل هذه الاكاذيب

ابعد الله اساليب هذه الصحافة عن ديار المشرق ولا كانت جنة محفوفة بمثل هذه المكاره